كتاب (محاولات في النقد) لمحمد محمد علي
قراءة نقدية

د. أبو صباح علي الطيب
جامعة أم درمان الإسلامية
معار إلى جامعة القصيم

ملخص الدراسة

كتاب (محاولات في النقد) لمحمد محمد علي، من الكتب التي لها خطرها في حركة النقد الأدبي في السودان، فهو يضعنا في كنف ناقد متمكن، يصدر عن ثقافة واعية، ورؤية ثاقبة، وأسلوب ماتع.

هدفت الدراسة إلى التعريف بقيمة الكتاب، الذي لم ينل منه تقادم السنوات، التي شهدت بداياته مقالات أدبية، ونقدية جريئة، وواثقة اتسمت بالجدة، والطرافة طرحها صاحبها على صفحات الصحافة السودانية في الفترة ما بين 1952– 1958م، في محاولة منه لإثبات صورة تعبر عن واقع الأدب السوداني في قوة، ووضوح، وبأسلوب يعنى بالفكرة في السياق الأدبي، ويعمل على مناقشتها، وفق ضوابط النقد العلمية، تسنده في ذلك ثقافته الواسعة، واعتداده بآرائه التي لا يعترف معها بغير الحقيقة، ولم يخضعها تهيب الأسماء الكبيرة في نقدنا العربي للصمت، أو المسايرة، فكان نقده أصيلاً في التعبير عما يؤمن به من أفكار.

تحتوي الدراسة على مقدمة تعرف بالكتاب، وتعدد فصوله، وتبين منهج الناقد في مناقشة الأفكار، وتحليل النصوص، وتوازن بين الآراء المختلفة،

لتخلص منها إلى نتيجة تشي بقيمة كتاب أصيل، يمثل منجزاً نقدياً ما تزال الآراء، والأفكار فيه تغري بالدرس، والتحليل، والمراجعة، وكأنها كتبت للتو.

وتنتهي الدراسة إلى نتائج ترى في مواقف الناقد محمد محمد علي تراوحاً بين النقد، ونقد النقد، فضلاً عن حقيقة ماثلة يجليها كتابه، مفادها: أن النقد جهد إنساني من شأنه التأرجح بين القوة، والضعف، وإن تكن ثمة كلمة أخيرة، فتوصية بدراسات أخرى تكشف عن الفكر التجديدي الذي لا تخطئه العين ماثلاً في تضاعيف كتاب (محاولات في النقد)، وتخبر عنه مواقفه النقدية بعامة.

Abstract

Endeavors in Criticism by Muhammad Muhammad Ali is a significant book in the literary criticism movement in the Sudan. It puts us with a talented, educated, and farsighted critic who is equipped with an appealing style.

This paper aims at showing the value of the book which has long stood the years; its introduction includes daring literary and critical articles characterized with seriousness and wit which the writer presented in the Sudanese press in the years 1952-1958 AD. He tried to depict a realistic, efficient, clear, and transparent image of the Sudanese literature in a style that incorporates thought in a literary discourse that follows the standards of scientific criticism, powered by his extensive education and self confidence in his views that maintain truth. He has not been underpowered by the great critics in the Arabic literature. He had an original criticism of his own that expresses his ideas.

The study incorporates an introduction of the book, variety of its chapters, the critic's methodology in explaining his views, text analysis, and consensus of various viewpoints, resulting in a valuable original book considered as a product in criticism whose ideas and views still attract people for further study, analysis, and revision as if they were written just now.

The study ends with results that see Muhammad Muhammad's viewpoints a variety of criticism, criticism of criticism, in addition to the idea his book explores: criticism is a human effort that fluctuates from strength to weakness. Finally, a recommendation

for further studies explores those modernist thoughts that are transparent in the book, **Endeavors in Criticism**, and foretell his viewpoints in literary criticism generally.

مقدمة:

صدر كتاب (محاولات في النقد) للشاعر والناقد السوداني الراحل الأستاذ/محمد محمد علي، في مائة وتسعين صفحة عن دار البلد للطباعة والنشر بالخرطوم في السودان، في العام 1998م، والطبعة التي اعتمدنا عليها هي الطبعة الأولى، وتضمن الكتاب مجموعة من المقالات التي نشرت في الصحف السودانية في الفترة مابين 1952، والعام1958م، وهو كتاب متعدد الوجوه، يجيل أنظارنا بين آراء نقدية متباينة تتناول تجربة الشاعر أبي نواس، ونقد موقف طه حسين من ديوان (أصداء النيل) للشاعر عبد الله الطيب، وجماع الشاعر الإنساني، وفكاهة الشاعر خليل عجب الدور، وموقف الناقد النويهي من الفضيلة بين البداوة والحضارة، والأدب السوداني وتاريخه، والغموض في شعر ونثر التجاني يوسف بشير، ونظرة في قواعد اللغة، وفي الأدب والدين.

وتشير فصول الكتاب إلى تنوع الموضوعات وغناها، مثلما تشي –في ذات الوقت– ببراعة الناقد، واتساع ثقافته وعمقها، وامتلاكه أدوات نقده، فضلاً عما تتسم به شخصية من بعدين هما: التواضع، والاعتداد بالنفس.

ولعل البعد الأول يتجلى في:

1–اختيار الناقد (محاولات في النقد) عنواناً لكتابه، وهو عنوان يريك التواضع بين دفتي سفر له خطره في مجال الدراسات النقدية، بما انطوى عليه من تأملات، وفكر، واشتمل عليه من أحكام موصولة بالتراث النقدي العربي، وكان حق الكتاب–في تقديرنا– أن يكون عنوانه: (دراسات في النقد).

وفي ذلك يقول حيدر إبراهيم علي: "جذب انتباهي في كتاب الأستاذ محمد محمد علي عدد من الآراء المجددة. . . وكان من المفترض أن يكون العنوان المتواضع لكتابه(محاولات في النقد) هو(تجديد النقد) فالكتاب في الواقع يحتوي على الكثير من الأفكار التجديدية التي كانت تحتاج إلى الكثير من المتابعة، والنقاش ".[1]. وإلى ذات الرأي يشير عبد المنعم عجب الفيا عندما يقول:"والحق أن عنوان الكتاب(محاولات في النقد) فيه كثير من التواضع بالنسبة لقيمته الأدبية, ورصانة أسلوبه, ومتانة أفكاره التجديدية التي لا تزال طازجة, وكأنها كتبت للتو, فكل القضايا التي تناولها هذا الكتاب لا تزال ساخنة, ومحفزة للتفكر والنقاش, وليس من بينها قضية واحدة, أو مقال واحد يمكن أن يهمل, أو يغض الطرف عنه"[2].

2-وفي قوله عن مسوغات نشر مقالاته تلك ". . . وإنما عنيت بنشرها لأني رأيتها تتضمن أفكاراً وخواطر لم تنل ما كنت أرجوه لها من المناقشة والتمحيص، وظننت أن في نشرها في كتاب يلبث في يد القارئ، وفي إعادة مناقشتها المتأنية فائدتين: فائدة للحركة الأدبية في محيطنا الأدبي، وخاصة حركة النقد، وفائدة أخرى تعود على أنا بتصحيح أفكاري، وتنقية معتقداتي الأدبية من شوائب الخطأ"[3]. فالمقالات عنده تتضمن أفكاراً وخواطر، ولم يقل آراء نقدية، فضلاً عما تنطوي عليه عبارة (وفائدة أخرى تعود علي...) من تواضع,فهو لا يقطع بصحة أحكامه، ولا يرى فيها الرأي الأخير، مثلما لا يرى ضيراً في مراجعتها في ضوء آراء الآخرين.

ولكن هذا الروح -قرين مثل هذه المواقف- لا يلبث أن يتحول إلى نقد عنيف حالما دخل الناقد في خصومات نقدية.

أما البعد الثاني: (الاعتداد بالنفس)، فهو أوضح ما يكون في الأحكام التي يطالعنا بها الناقد في جملة الآراء النقدية التي اشتمل عليها كتابه، يؤيد ذلك قول صديقه الأستاذ منير صالح: "إن محمداً كان لا يقبل أن يهزم في

المعارك النقدية قط، يستعمل في ذلك شتى السبل لإظهار خصمه بمظهر الضعيف الجاهل، ويلاحق خصمه بالنقد العنيف في كل محل يحل به، مما يجعله مرهوباً مهاباً، وهذا إنما يرجع إلى اعتداده بنفسه، وثقته بمعرفته"[4]

وتمتاز لغة الكاتب في (محاولات في النقد) بالقوة، والجزالة، ومتانة الأسلوب، فهو متأثر بالنقد العربي القديم –ميدان معرفته– لا نكاد نرى أثراً لثقافة أجنبية، ولا ظلالاً لنقد غربي فيما كتب ذلك لأن جذور ثقافته اتصلت بحفظ كتاب الله العزيز، وتلقي دروس اللغة العربية، والعلوم الإسلامية بالمعهد العلمي بأم درمان، ثم الالتحاق بكلية دار العلوم بمصر التي تخرج فيها، فضلاً عما اتسم به من ولع بالمعرفة بعامة، وما يتصل منها بحركة النقد الأدبي بخاصة، في عزم، وكفاح مستمرين توجا بنيل الناقد درجة الماجستير عن دراسته بعنوان (الشعر السوداني في المعارك السياسية 1821– 1924م). وبتأمل طريقة الناقد محمد محمد علي في مناقشة الأفكار، والآراء، وتحليل النصوص نلفيها تقوم في الغالب على:

1– استحضار الفكرة، أو الرأي، أو النص.

2– مناقشة ذلك في ضوء آراء نقدية، ونصوص شعرية تتصل بالموضوع.

3– تسجيل الملاحظات النقدية.

4– الانتهاء إلى الحكم (ومعه إما أن يعتد الناقد بنفسه، أو يظهر تواضعه حال الاعتراف بقيمة العمل).

ويعد كتاب (محاولات في النقد) مرآةً لشخصية صاحبه، يحكي أحواله فتراه –في بعض فصوله– واثقاً مطمئناً، وتتبدل به الأحوال، فتريك منه مهاجماً عنيداً، وهو "رجل مطبوع على البوح، وشخصيته في شعره ونثره غاية في الوضوح، فهو مفصح عن آماله، وآلامه، وما يحب، وما يكره، وعن نظرته للثقافة والفنون، وعن مطامحه في الحياة"[5].

على أن سمة أخرى تقف بين ثقة الناقد بنفسه، وبين رؤيته مهاجماً عنيداً، هي جرأته في الرد على الخصوم، وفي تناول موضوعات أثارت ضروباً من الجدل والمناقشة، من ذلك مقالاته بعنوان: (الأدب السوداني وتاريخه) التي يدعو فيها إلى وجوب العناية بالأدب السوداني، وإدخاله ضمن مناهج التعليم بالمدارس السودانية، الأمر الذي تباينت حوله الآراء، واختلفت معه تبعاً لذلك ردود الناقد التي يقول في إحداها: ". . . وسأقصر حديثي اليوم على النظر في مقالة للأستاذ عبد الرحيم الأمين نشرت بجريدة الأمة العدد"1990"يقول الكاتب المحترم بعد أن أشار إلى أنه قرأ مقالاتي الآنفة الذكر "ورأيي أنه لا يوجد أدب سوداني محلي، يختلف عن المادة العربية التقليدية، التي تنتج في أغلب البلاد العربية الإسلامية. وهي مادة يكثر فيها الشعر، ويقل حظ النثر في فنونه المختلفة، كالقصة، والمقالة، والدراما. ومعنى هذا أنه لا يوجد أدب محلي في مصر، أو سوريا، أو لبنان، أوعدن، وإن كانت هناك سمات شكلية تختلف باختلاف البلاد".

ثم يردف الناقد محمد محمد علي معلقاً: "من غير شك أن هذه الفكرة التي أتحفنا بها الأستاذ فكرة جديدة لم يسبقه إليها أحد فيما أعلم، وأخشى ألاّ يتبعه فيها أحد، لأنها غريبة كل الغرابة على التفكير الذي اعتاد أن يربط المسببات بأسبابها، والنتائج بمقدماتها. . . "[6].

وتتفاوت طريقة الناقد، وتختلف أساليبه فيما أشرنا إليه من جرأة، ففي رده على محمود محمد طه، وحديثه عن فلسفته يخاطبه بالقول: " أحب أن تعطي الواقع قسطاً كبيراً من احترامك، وأن تنزل فلسفتك من السماء إلى الأرض، فنحن في أشد الحاجة إلى رجل مثلك قد عرف عند الناس بالإخلاص، وحب الحق والشجاعة في الجهر به "[7]. ونرى صورة أخرى في تعليق الناقد على نقد طه حسين لديوان (أصداء النيل) يلخصها قوله: "إن أستاذنا طه لم يعن العناية التي كنا ننتظرها منه بلباب الديوان وجوهره،

وإنما شغل عن ذلك، وشغلنا معه بأعراض يسهل اطراحها إن سلم الجوهر، وقد بالغ في تضخيم هذه الأعراض مبالغة لا نرى ما يشفع لها في شعر الشاعر، وقارئ الشعر اليوم يأمل أن يجد في نقد ناقد مثل الدكتور طه شيئاً غير هذا النقد الفقهي المبالغ فيه. . . "[8]

وتتمدد هذه الجرأة في كتاب(محاولات في النقد) لنطالع عناوين مثل: (هذا النحو لا حاجة لنا به) ذلك لما ضجر طلاب المعاهد، والمدارس بجمود المواعين التي يقدم فيها الدرس النحوي، وارتفعت أصواتهم بالشكوى من عقم الطرائق التي يسلكها بعض مدرسيه، على أن البلاغة لم تكن استثناءً في ذلك، فأفرد لها الناقد عنواناً مماثلاً (هذه البلاغة لا حاجة لنا بها). ومثل هذا كثير مما حفلت به قراءتنا، وحواه الكتاب مما سنفصله بإذن الله.

وتتناوب مواقف الناقد في كتابه بين النقد المباشر، وبين نقد النقد، وقد اقتصرت قراءة الكتاب على الآراء المتصلة بالتجارب الشعرية، متجاوزة بذلك ما تضمنه من نقد اجتماعي، وآراء في موضوعات أخرى مختلفة تمس طرفا من علم الاجتماع, وتحمل رؤى فلسفية تحكي استيعاب الناقد نظرية المعرفة لأفلاطون, وإلمامه بأصول علم الفلسفة, بل وقدرته على توظيف ذلك لخدمة آرائه في الربط بين الأدب، والثقافة المحلية، وفيما تناول من موضوعات شملها الكتاب، ورأينا تجاوزها لسببين الأول منهما: اختلاف طبيعتها عما تناولنا من تجارب شعرية، أو قضايا متصلة بالشعر بما يعطي الدراسة انسجاما، واتساقا، والثاني: أن دراسة نقدية سابقة للأستاذ عبد المنعم عجب الفيا تناولت بشيء من العمق، والتفصيل رؤية محمد محمد علي التجديدية للبلاغة، وأصول النحو, ودعوته إلى لغة نقدية جديدة، ونظرته للعلاقة بين الدين، والأدب، والفلسفة. كل ذلك في دراسة واعية غطت الموضوعات المشار إليها بصورة لا نحسن معها إضافة –إن نحن فعلنا–

فاكتفينا بالإشارة إلى ذلك, ورأينا أن نحيل إلى الدراسة التي جاءت تحت عنوان(محمد محمد علي ناقدا ومفكرا).[9]

تمهيد:

تحاول هذه القراءة استقصاء جهد نقدي، لأحد أهم أعلام الأدب السوداني الحديث ممن اضطلعوا بأثر كبير في بناء نهضة علمية رفدت المشهد الثقافي حينها بنتاج متنوع توزع بين: الأكاديمي في قاعات الدرس، والأدبي الفكري الثقافي في الصحافة، والمنهجي في مجال البحث العلمي، فالأديب، والناقد السوداني محمد محمد علي من مواليد حلفاية الملوك في العام 1922م، تلقى تعليمه الأولي بها. وهو سليل أسرة حكم، فجده لأبيه آخر سلاطين (العبدلاب) الذين زال ملكهم على يد الأتراك إبان غزوهم السودان.

ومحمد محمد علي ممن تخرجوا في معهد أم درمان العلمي في العام1945م، ليعمل بالصحافة (1945–1946م)، واستمر نشاطه فيها بنشر مقالات نقدية(1952–1958م)، جمعها فيما بعد في كتابه موضوع قراءتنا (محاولات في النقد)، ومقالات أخرى تناولت شؤون الحياة العامة ضمنها كتابه(من جيل إلى جيل).

سافر إلى مصر، والتحق بكلية دار العلوم، ونال فيها ليسانس اللغة العربية، ثم دبلوم التربية من جامعة إبراهيم بالقاهرة، ثم عاد إلى السودان، وعمل مدرساً للغة العربية بالمدارس الثانوية، ومحاضراً بمعهد المعلمين العالي الذي صار فيما بعد كلية التربية جامعة الخرطوم.

عاد إلى مصر ثانية، طالب دراسات عليا بكلية دار العلوم، لينال درجة الماجستير عن موضوعه بعنوان: (الشعر السوداني في المعارك السياسية 1880–1924م) وفيه قدم عملاً وافياً، وأضاف مرجعاً مهماً في مكتبة الأدب السوداني بما أثبت فيه من آراء قيمة، وكان – رحمه الله – يعد العدة

لإكمال مابدأه في الماجستير برسالة دكتوراه بعنوان: (الشعر السوداني في المعارك السياسية 1924–1953م)، ولكن اختاره الله إلى جواره قبل أن يتحقق ذاك الطموح، كان ذلك في العام 1970م.

للأديب محمد محمد علي مجموعتان شعريتان: (ألحان وأشجان) نظمت قصائده بين عامي 1936–1960م، و(ظلال شاردة) وهو يضم القصائد التي كتبت بعد العام 1960م. وقد وافق ديواناه ماحفلت به كتاباته غير الشعرية من دعوة للتجديد، فتعددت أوجه التجديد في شعره، وهي دعوة تبناها الأديب في غير موضع فسرت فكرة في الكثير مما كتب، وتجلت في أوضح صورها آراء ماثلة بدت للعيان، تطالعك كلما أمعنت النظر في كتابه (محاولات في النقد) الكتاب الذي اتسم بالمنهجية، وكان له خطره في مجال نقد الأدب السوداني.

قراءة الكتاب:

1 – 1 أبو نواس عند ثلاثة من النقاد:

جاءت قراءة الناقد محمد محمد علي لأبي نواس من خلال ثلاث دراسات لعمر فروخ، وعبد الرحمن صدقي، والنويهي. وفيها تحيز الناقد للنويهي تحيزاً واضحاً، حينما قال: "فأنا مغرم بما يكتبه الدكتور النويهي، سواء وافق الصواب في نظري أو جانبه"[(10)].

ومثل هذا القول–وإن عبر عن تقدير خاص، واعتراف بقيمة ناقد له جهود علمية مقدرة– من شأنه أن يوجه النقد بعيداً عن مساره العلمي، وأن ينتهي به إلى أحكام مسبقة، وإن ارتقت به رؤية النويهي العلمية في تحليل شخصية أبي نواس من الجانب النفسي.

وهو ما نلحظه من اختصار صاحب كتاب (محاولات في النقد) لآراء الناقدين (عمر فروخ، وعبد الرحمن صدقي) بل وتجاوز دراستيهما عن تجربة أبي نواس، ليأتي حكمه مختصراً مبتسراً، لم يكن حظ الناقدين معه

غير أن يضمنا في العنوان، ويصدر عليهما حكم – مقتضب – واحد، اختصره قوله "ومهما يكن رأي القارئ وهواه، فإني لم أجد عند عمر فروخ شيئاً جديداً أستفيده، ولم أجد عند عبد الرحمن صدقي جديداً، غير محاولته أن يجعل من أخبار أبي نواس، وأشعاره قصة متلاحمة الحلقات، وقد شوش ما أراد أن يكون موصولاً بذكر حقائق تاريخية عن الدولة العباسية، وبعض رجالها، مما يعرفه معظم القراء. وإن كان أبونواس في قصة عبد الرحمن صدقي أحب إلي من أبي نواس في كتاب النويهي"[11].

وبالرغم من أن الناقد محمد محمد علي لا يرى القطع بصحة الحقائق التي أوردها النويهي، لكونها مثار خلاف، وجدل بين من يرون أنه أصاب شاكلة الصواب، وبين من يرون أنه لم يوفق، بالرغم من هذا، إلا أنه أفاض في تدوين ملاحظاته[12]، التي نكتفي منها بما ذهب إليه بالقول:

1/ أراد الدكتور أن يفهمنا أن دعوى أبي نواس شرف الخمر، وكرامتها، تبدو غريبة عند معظم المسلمين، لأن الإسلام حرم الخمر، ووصفها بأنها رجس من عمل الشيطان. ويعلق صاحب (محاولات في النقد) بقوله: "وأنا لا أرى ذلك، فالخمر، بالرغم من تحريم الإسلام لها، ظلت في نظر المسلمين أرقى من سائر الأشربة، ويكفي دليلاً على ذلك، قول حسان بن ثابت يوم فتح مكة:

إذا ما الأشربات ذكرن يوماً فهن لخالص الراح الفداء

ويستمر في القول إن القرآن الكريم نفسه أشاد بخمر الجنة، إشادة لم تظفر بها أنهار العسل المصفى واللبن، فالمسلمون يعرفون أنها متميزة عن سائر الأشربات، وإن كانت محرمة لأسباب توجب تحريمها في الدنيا. وينبغي أن نذكر أن الشعر الجاهلي يمجد الخمر، وأن الشعراء في جميع العصور يمجدونها، حتى الصوفية لم يروا بأساً من إدخالها في رموزهم، وأن النصارى الذين يقدسون الخمر كانوا وما زالوا يساكنون المسلمين،

ويخالطونهم، ولا شك أن لكل هذا أثره في نفوس المسلمين ونظرتهم إلى الخمر"[13].

وقول الناقد محمد محمد علي هنا – في تقديرنا مردود – لا يثبت أمام حقيقة ما ذهب إليه النويهي لما تضمنه من محاولة إثبات أن الخمر بالرغم من تحريمها ظلت الأرقى من بين الأشربة عند المسلمين، فهو قول لا يسنده الواقع، ولا تقيمه حجة. وأما استدلاله ببيت حسان، ففيه نظر، لما جاء عن بعض الرواة[14] من نسبة البيت إلى شطر القصيدة الذي قيل في الجاهلية، أي قبل تحريم الخمر، وأما قوله عن إشادة القرآن بخمر الجنة، فلست أدري كيف فات عليه أن أبا نواس لم يكن يمجد خمر الجنة؟. وأن القرآن الكريم لم يتضمن دليلاً على الإشادة بخمر أبي نواس؟ وعن تمجيد الشعر الجاهلي للخمر، فلا أحد يستنكر ذلك، فهو لا يقدح في قول النويهي الذي ينطلق من تحريم الإسلام لها، وكذا الحال فيما ذهب إليه من استبطان المتصوفة لها في رموزهم، وفي مساكنة من يقدسونها من النصارى للمسلمين.

2/ ويرى الكاتب (النويهي) أن أبا نواس تدرج في تفكيره في الخمر، فجعلها أولاً كائناً حياً، ثم جعلها سر الحياة، ثم انتهى إلى تقديسها.

3/ لم يلتفت الدكتور في كتابه إلى ثقافة أبي نواس، وأثرها في شعره، ونظرته إلى الخمر، لذلك لم يجعل تأثر فكره بالفلسفة وعلم الكلام السبب، أو أحد الأسباب في نزعته لتجريد الخمر في مثل قوله:

جاءت كروح لم يقم جوهر لطفاً به أو يحصه نور

4/ وهنا نصل إلى مسألة خطيرة–والقول لمحمد محمد علي– لا أرى أن حديث الدكتور فيها كان مقنعاً، فالمسألة هي أن أبا نواس يصف الخمر في شعره بأنها (بكر)، و(عذراء)، و(فتاة)، ويصف الماء الذي تمزج به (بحل الإزار)، ولا يقول: (إن الخمر حمراء كالدم)، بل يجعلها دماً. . . إلخ. فهل هذا مجاز، أم له دلالة أخرى؟.

ويواصل الناقد محمد محمد علي القول: إن الدكتور يذهب في تفسير هذه العبارات وأمثالها مذهباً لا أشك في جدته وطرافته، وإن كنت أشك شكاً كثيراً في صحته واستقامته، فهي عنده ليست مجازاً، بل حقيقة، فالخمر في نظر أبي نواس امرأة من بنات البشر، لا من بنات الكروم، وهو يجد في شربها لذة جنسية عنيفة، لم يستطع أن يحققها مع النساء، بسبب شذوذه والتوائه. وهو تفسير لا يقبله الناقد محمد محمد علي[15].

ويرى فيه مجانبة لواقع شعري اقتضى مسايرة الشاعر نهجاً سائداً، اختطه شعراء من قبله، بل ومضى عليه شعراء آخرون من بعده، ولم يكن الشاعر استثناءً في ذلك، فإن أسرف فما ذاك إلا لإسرافه في نظم الشعر في الخمر التي هي مرتبطة بالمرأة، فأصبحت العبارات التي تدور في محيطها لازمة فنية.

ويرى فاروق الطيب البشير أن عبارات محمد محمد علي هنا "أملتها المجاملة، لأن أصل الكتاب قد انبنى على الدراسة النفسية التي تعتمد العقد، واللاشعور، وقد جهد محمد في تفنيد هذه الطريقة، ونقدها، وأبدى ملاحظات قيمة على كثير من الأفكار التي أوردها في هذا الكتاب، فما بقي إذن ليعجب به الناقد، ويفتتن؟ "[16].

وقد تأملت ما انتهى إليه الناقدان (النويهي)، و(محمد محمد علي) فيما يتصل بوصف أبي نواس الخمر، فرأيت في آراء النويهي استقراءً نفسياً جيداً قاد صاحبه إلى نتائج قيمة، على خلاف ما هدت قراءة الناقد محمد محمد علي صاحبها إلى نتائج هي من بنات أفكاره، لا تمت للحقيقة – في تقديرنا – بصلة، ولا أكاد أجد في نفسي ميلاً لما عدا رأيه في مسايرة أبي نواس نهجاً سائداً في الشعر العربي.

1 – 2 الدكتور طه حسين وأصداء النيل:

جاءت كلمة طه حسين عن ديوان (أصداء النيل) لعبد الله الطيب على خلاف ما يرى الناقد محمد محمد علي الذي يقول: "أنا ممن قرأوا الديوان

بإمعان، وخرجوا منه بصورة مطابقة، أو مقاربة، ثم قرأوا كلمة الدكتور طه الرائعة، وخرجوا منها بصورة أخرى. ويؤسفني أن أقول إن الصورتين مختلفتان، لا تمت أولاهما إلى أخراهما بقربى أو نسب"[17].

بهذه العبارات تتضح صورة الخلاف المجمل بين الناقدين حول قراءة الديوان، ففي حين ركز طه حسين على أسلوب الشاعر – واعتذر عن إهماله لما حوى الديوان من غناء – أعاب عليه الناقد (محمد محمد علي) عدم تفصيله الحديث في أسلوب الشاعر، واقتصاره على جزء منه، مع تجاوزه بناء القصيدة العام، وعدم تناوله ترابط أجزائها، وتلاحم صورها، مكتفياً بالحديث عن الغريب من الألفاظ، والجزل من الأساليب، في غلو يجعل القارئ يشك في أن طه حسين يتحدث عن ديوان آخر على حد قول الناقد: "وقد غلا في هذا غلواً جعلني أظن أنه يتحدث عن ديوان آخر غير (أصداء النيل). . . "[18].

فوصف الديوان بالعسير إلى الحد الذي يغلق على المتلقي فيه من الإجحاف، ومجانبة الحقيقة الكثير، وليس أدل على ذلك من قول الناقد محمد محمد علي: "هذا الديوان العسير الذي لا يصبر على قراءته غير أولي العزم لا أعرفه، وإنما أعرف ديواناً قرأته في يسر يسير، ولم التفت إلى شرح صاحبه إلا لماماً"[19].

وهو ما يؤيده الناقد فاروق الطيب البشير بقوله: "وعندي أن مبالغة الدكتور طه حسين في حديثه الغريب عن (أصداء النيل) لا شك فيها"[20].

والمتأمل لآراء الناقد محمد محمد علي فيما يتصل بديوان (أصداء النيل) يرى أنها لم تصدر عن معرفته بالديوان فحسب، وإنما عبرت عن معرفة، وثقافة عميقتين مكنتا له من الاحتجاج على طه حسين من ذات المداخل التي ولج بها، وبذات الطريقة التي انتقد بها (أصداء النيل)، وإن توسع في الاستشهاد بالشعر، والموازنة بين بعض أساليب شعراء العصور المختلفة –

– من الجاهلي، حتى الحديث– نافياً بذلك الغرابة عن (أصداء النيل)، لا مدافعاً عن استعمال الغريب الذي هو قرين الضعف، فالغريب في نظره "مهما تكن دوافعه، ومبرراته قبيح مرذول، يذهب ببهاء الشعر ورونقه..."[21]. و"الغريب في شعر شاعرنا لا يكاد يتجاوز السبعين كلمة، وأسلوبه ليس عسيراً بالصورة التي أراد طه حسين أن يثبتها في أنفسنا بعرضه الشائق، وسخريته العذبة. فهو لا يشبه أساليب هؤلاء القدماء الذين أضافه إليهم، بل هو أسلوب معاصر يشبه في بعض نواحيه أسلوب البارودي، وذلك أنه لا يسترسل في الاستطراد التصويري استرسال الشعراء الجاهليين، ولا يتوعر توعر الإسلاميين أمثال: الأخطل، والفرزدق، ولا يحفل بالصنعة البديعية التي حفل بها معظم الشعراء العباسيين، أو الصنعة البديعية المشوبة بتصيد الحوشي، والاستعارة الجامحة كما يفعل أبوتمام، ولا يركن إلى قضايا الفكر، وصيغ الفلاسفة، كما يركن المتنبي، والمعري. فهو أسلوب معاصر يعشق أساليب القدماء، فتواتيه حيناً، وتفلت منه في أكثر الأحيان. وإذا شك القارئ في شيء من هذا فليقرأ هذه الأبيات، وهي من شعر صاحب الديوان، وليحدثني بعد ذلك عن شاعر جاهلي، أو إسلامي، أو عباسي ممن يؤثرون الغريب، والأسلوب الجزل يقول مثلها:

ألست ترى كيف يمضي القطار فينأى مزار ويدنو مزار

وموج من الأرض فيه النبات وأزهاره فضة أو نضار

تمر أمامك مر الهواجس في القلب منهن ماء ونار

إن كلمة أستاذنا طه ليست الكلمة الأخيرة التي تكتب عن هذا الديوان، فهي قد وصفت لنا وصفاً مبالغاً فيه ما يرتديه صاحب الديوان من ثياب، أما هو نفسه فلم تحدثنا عنه، ولم تكشف لنا عن حقيقته، والثياب التي

خلعتها عليه أسلاب قوم مضوا في سالف الحقب، كما يقول الشاعر العظيم ابن الرومي هاجياً البحتري"[22].

وقد توسع صاحب (محاولات في النقد) في الدفاع عن زعم طه حسين استخدام الغريب عند عبد الله الطيب، وخرج بنتيجة مفادها أن نقد طه حسين لم يعط صورة مطابقة لما حوى (أصداء النيل)، ولم يعن بجوهر الديوان، بل هو نقد فقهي مبالغ فيه[23].

1 – 3 جماع شاعر إنساني:

يتوقف الناقد محمد محمد علي[4] عند موضوعات الشعر التي تتصل بالإنسان، ويقرر أن الشعراء على كثرة تناولهم لتلك الموضوعات قلّ فيهم وندر من استحق أن يوصف بأنه شاعر إنساني، فأكثرهم إن أصاب في موطن، أخفق في مواطن أخرى.

ثم يدلف إلى تأكيد أن جماعاً شاعر إنساني، في إشارة تعد" من الكتابات المبكرة التي لفتت النظر إلى شاعرية جماع، وألقت أضواء على تجربته، فهو شديد المعرفة به، وكثير القرب منه"[24] متخذاً من شعر أبي الطيب المتنبي مدخلاً لإثبات زعمه بخلو شعر الأخير من الحس الإنساني الذي يتجسد في العطف على المحرومين، ومراعاة شعورهم، قائلاً: "فهذا أبو الطيب المتنبي بالرغم من غوصه في أغوار النفس، وشعوره الملتهب بالظلم، وثورته العاتية على الظالمين الذين تسنموا قمم المجد بلا استعداد، ولا كفاية مثل كفايته، لا تجد منه عطفاً على المحرومين من أمثاله. بل تراه يسوي بين الناس جميعاً، ويدمغهم بالظلم، والعدوان:

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا

وهذا المرء الذي يصل القناة بالسنان للفتك بالأبرياء، وغير الأبرياء، هو كل إنسان بلا استثناء. وذلك لأن الظلم، والشر هو قوام الطبيعة الإنسانية:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وما دام الناس هكذا، فليس في ظلمهم، واضطهادهم إثم، ولا حرج، بل الحزم إعمال السيف في رقابهم، وتمكين الرمح من أفئدتهم:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم"(25)

على أن المتأمل لتجربة الشاعرين، لا يرى وجهاً للموازنة بينهما لقيام تجربتيهما على عناصر في تقديرنا تتباين تبايناً كبيراً، لا يعدم المتلقي معه – ناهيك عن الناقد – إدراك أثرها، في إحداث هذا التضاد الذي أدركه الناقد، وبنى عليه أحكامه الخاصة، فالمتبني في الأبيات السابقة يقيم تجربته على فلسفة فكرية عميقة تطمح العبارة فيها إلى غير ما تفضي إليه عبارة الشاعر جماع، فالمتنبي يستمد صوره من واقع تجارب خاصة، بل هي شديدة الخصوصية لا تتعداه إلى سواه، ولا تصلح أن تقرأ قياساً على تجربة أخرى، وربما يرجع ذلك إلى طبيعة الصراع النفسي الذي قاساه بين واقعين، واقع الحياة التي عاشها، والأخرى التي كان يطمح أن يعيشها، فحال بينه وبينها ما يكشف عنه الشاعر في صدري الأبيات التي استشهد بها الناقد (والظلم من شيم النفوس)، (ومن عرف الأيام معرفتي بها). وهذه الخصوصية في التجربة تختلف في تقديرنا اختلافاً كبيراً لا يسمح بإجراء الموازنة بين التجربتين، ولنقف في توضيح بعض ذلك أولاً عند بيتين من جملة ما استشهد به الناقد في إثبات علو الحس الإنساني عند جماع:

لو أدركوا قيمة الإنسان ما جمحد بهم لمقتل حر نزوة الأرب

فما يساوي الذي تحوي خزائنهم مجرى دم واحد في الأرض منسكب(26)

وقد بدا الناقد حريصاً على إظهار الجانب الإنساني في شعر جماع متوسلاً إلى إثبات ذلك بتقسيم الشعراء إلى طوائف[27]:

1- طائفة شريرة تناصب الناس العداء.

2- طائفة – تعيش لنفسها – لا يهمها أمر الناس.

3- طائفة الإنسانيين من أصحاب النفوس الكبيرة. . .

ويرى أن الشاعر" إدريس جماع يركض برايته البيضاء في الرعيل الأول من هذه الطائفة الخيرة، دون أدنى شك"[28].

والناقد لا يكتفي بوضع الشاعر ضمن طائفة الإنسانيين، وإنما يلتمس جذور الحس الإنساني في طفولته، ونشأته الأولى، يقول: "فهو منذ نشأته الأولى يحب السلام، ويعشق الجمال، ويعيش بعيداً عن مصاولات الأطفال، ومشاحناتهم. . . "[29].

ويستعرض الناقد صوراً شعرية لجماع تعكس الحس الإنساني الذي تجاوز عالم الإنسان ليشمل الطير، والحيوان، من ذلك قوله:

وإذا ما سقط الطير جريح وهو مخضوب على الأرض طريح

يضرب الأرض بريش ويصيح حوله زغب من الطير تنوح

فتلمست بجنبيك الجروح فبحق أنت إنسان وروح

وبتأمل الأبيات لا نكاد ننتهي إلى ما انتهى إليه الناقد محمد محمد علي من نتائج، فنحن وإن سلمنا بإنسانية إدريس محمد جماع، واعترفنا بغلبة الحس الإنساني على شعره؛ لا نرى ما يراه الناقد هنا من وجه يفضي إلى إقحام تجربة المتنبي في مثل هذه الموازنة التي لم تتوافر لها شروط الاتفاق، ومن ثم لا يمكن أن تفضي إلى ما يريد الناقد أن يخلص إليه حول تجربتين شعريتين تختلفان اختلافا كبيراً فيما يتصل بعناصر بنائهما: فنياً، وجمالياً،

فضلاً عن اختلاف كامل في طبيعة الحس الإنساني عند كلا الشاعرين، بل واختلاف مفهوم الحس الإنساني، وتقويمه بين ناقد وآخر.

1 – 4 **صفحة باسمة من عجب الدور:**

يجسد المقال ملمحاً طريفاً – من نقد محمد محمد علي – استعرض تجربة الشاعر خليل عجب الدور الذي يصفه بأنه "شاعر مطبوع على الفكاهة، وهو شاعر محلى بأقصى ما تؤديه هذه الكلمة من معنى، فقد امتلأت نفسه حتى فاضت بما يرى، ويحس من مناظر القرى، والبادية، ومثلها، وتقاليدها، وتصورها للأشياء، وتذوقها إياها. . . " [30].

وقد استقصى الناقد ملامح الفكاهة في شعر عجب الدور، وأبان عن جوانب الطرافة في شخصيته، فهو شخصية مرحة، جمعت بينه وبين الشاعر عبد الله محمد عمر البنا أكثر من صلة، وبينهما مساجلات شعرية، أرسل الناقد بعضها، وحجب البعض لما لم تستقم روايته.

ويصف الناقد ديوان عجب الدور بأنه: "ممتع بلهجته المحلية، فهو لا يتورع عن استعمال الكلمات العامية، وقد يشرحها شرحاً لا يقل عنها طرافة، من ذلك أنه أجاب فتاة سألته فقال ما معناه: إننا فتيان كرام على أنياق عنانيف، وقال في الشرح: (عنانيف جمع عنافيا، وهي كل ناقة أبوها جمل عنافي!)"[31].

وقد استوقفت الناقد من شعر الشاعر قصيدتان نلمع إلى أبيات من قصيدته (رحلة إلى النهود) التي تجلي احتفاء الشاعر بالمحلية، وتبين مدى ولعه بها:

وترى الكنانيات تلعب(32) في الضحى من كل بكر حولها أغنامها

وترى الدغيميات ثمة والخزا ميات تخترق الفلا أنغامها

من كل صفراء الجبين رشيقة ينآد من خمر الدلال قوامها

ومليحة جاءت تسوق نعاجها هيفاء حلو كالرحيق كلامها

صفراء لامعة الجبين كأنها طول المدى يتجدد استحمامها

يعلق الناقد بقوله: "وأحب أن يلتفت القارئ إلى وصف الشاعر الفتاة بأنها صفراء الجبين، فهو وصف محلي، ولا أرى غيرنا يستسيغه، وإنما هو عندهم دليل المرض، وتغير الحال".

ويتوقف الناقد عند إحدى صور (عجب الدور) التي تصف كرم البدويات، ونجدتهن، وتروي تلذذه الساذج بما أبدينه من كرم وحفاوة:

مكحولة العينين سمراء اللمى قد سرني ترحابها وسلامها

حلفت عليّ بأن أبيت وأنه صعب عليّ عتابها وملامها

ولقد جلست مكرماً حتى أتى يزجي النياق عسيفها وغلامها

ذبحا إليّ من النعاج سمينةً صغرى لذيذ في الشواء لحامها

قد أكرما مثواي داخل خيمة نشرت بها ستراً يروق نظامها

سترّ من السعف المطرز ضفره ملساء تلمع سرني إحكامها

وقد أضجعت على السرير مكرماً حتى استوى مشروبها وطعامها

ويكتفي الناقد بتعليق طريف على النص بقوله: "ولندع خليلاً مضجعاً على سريره ينعم بمشروبه ومأكوله"[33].

وتتعدد وجوه شعر عجب الدور، فنرى مع كل وقفة لوناً طريفاً من ألوان الشعر، وملامح نقدية تساير ذات الروح الشعري، وقبل كل ذلك تتردد أصداء أسى على لسان محمد محمد علي الذي يعرب عن حزنه بالقول: "ومن دواعي أسفي أن الشاعر كان له ديوان مخطوط، تركه عندي ما يقرب من الشهر، فلم أسجل منه شيئاً، واكتفيت بالمتعة العابرة، فهو ديوان ممتع، وهذا أدق وصف له، ولو عني صاحبه بأسلوبه لأصبح من الروائع المعدودة"[34]. ولعل احتفاء الناقد محمد محمد علي بشعر الشاعر خليل

عجب الدور –وإفراده له تلك المساحة من كتابه–لايبتعد كثيراً عن اهتمامه بخصوصية الأدب السوداني، وواقعيته، التي يجد لها في شعر خليل –على وجه التحديد– صدًى يوافق تطلعاته، ويلبي طموحه أن تكون للأدب السوداني صورته الخاصة به، المعبرة عنه تعبيراً صادقاً، ففي تجربة خليل عجب الدور اتجاه شعري يوافق هوى الناقد الذي عني به، وأفرد له من المساحة ما يكفي لتعزيز إحساس المتلقي بقيمة أدب سوداني خالص، له طابع خاص يختلف عن أدب بقية الأقطار العربية من حيث ألفاظه التي تعبر عن معان، وتجارب تفضي إلى اتجاه جديد في الأدب السوداني:

ولقمة من دقيق الدخن فئة ألذ في الطعم من قراصة الفيني

صنعتها بيدي في الصاج لين كأنما صنعت في دوكة الطين

ملاحها ويكة لايوقة وبها ملح قليل وفيها حب كمون(35)

وقد ربطت بعض الدراسات[36]–في مناقشة هذا الاتجاه الجديد في الأدب السوداني–بين حمزة الملك طمبل مؤلف كتاب(الأدب السوداني، وما يجب أن يكون عليه) وبين محمد محمد علي بل وعدت الأخير "أهم، وأقوى صوت في النقد الأدبي يظهر بعد حمزة الملك طمبل، ومعاوية محمد نور"[37]. وقد بلغ من اهتمام محمد محمد علي بهذا الاتجاه، والدعوة إليه أن التزمه في شعره، وتبنى ضرورة إدخاله في مناهج المدارس السودانية، لما في ذلك من دعم للقومية السودانية، وتثبيت لأركانها. [38]

1 – 5 الغموض في شعر التجاني:

أفاض الناقد محمد محمد علي في الحديث عن الغموض في شعر التجاني ونثره، تناول ذلك في ثلاث وعشرين صفحة.

وإن كنت رأيت في موقف الناقد بين المتنبئ، وبين جماع في مقاله (جماع شاعر إنساني) الحلقة الأضعف في الكتاب، فإن شعوراً مغايراً تملكني وأنا ألمس دقة وعمقاً تميزان موقفه من الغموض عند التجاني، فأنت

ربما تخالفه الرأي في بعض ما ذهب إليه، ولكنك لا تملك إلا أن تحترم آراءه التي حاول جاهداً أن يقدم من خلالها تفسيراً منطقياً للغموض في شعر التجاني. . على أن الآراء النقدية حول(الغموض في شعر التجاني) تباينت بين النقاد، فمنهم من يلتمس تفسيراً لها فيقول: إن الشاعر التجاني"يأتي بضمائر يحتار الباحث في إرجاعها، وقد لا يجد لها مرجعاً إلا إذا انتزعه تقديراً. . . وهذا يبعث على الحيرة، والاضطراب، ويجلب الغموض"[39] ومن النقاد من تسامح في نظرته إلى الغموض في شعر التجاني، وتجاوز بذلك إلى محاولة تفسير آراء غيره بما يدخل تحت دائرة تسامحه الخاص. من ذلك ما يجعل حديث الناقد محمد محمد علي عن (الغموض في شعر التجاني) حديثاً عن الاختلاف في المذهب الشعري، والنقدي، والرؤى، والنظرة، والأسلوب الشعري، مستنداً في ذلك على اختلاف رؤية الناقد الذي ينطلق في قراءة شعر الشاعر من واقعية عقلانية، ترى في كل مالا يتوافق معها غموضا[40] ومن النقاد من يرى تحاملاً واضحاً في نقد محمد محمد علي لشعر التجاني فيما يتصل بقضية الغموض القضية الأكثر جدلاً من بين ما تناول الناقد في كتابه محاولات في النقد_ويرى أن شأن التجاني في ذلك شأن سائر الشعراء النقاد الذين يمثل نقدهم وجهاً من وجوه دفاعهم عن شعرهم،[41] مستندين في ذلك إلى دفاع الشاعر (الذي نشر بمجلة الفجر السودانية)عن الغموض في شعره، والذي يخلص فيه إلى أن الحكم في الآداب للذوق لا للفكر، ويقرر أن الذوق قوة روحية تختلف أشد الاختلاف عن القوة العقلية التي تزن الشعر بميزان جاف قد يقف حائراً إزاء تعابير (شرب الضياء، ورشف الأشعة، والتهام النظرات. . .) والنقاد بذلك يقفون أمام أرقى المعاني، والشاعر لا يستطيع أن يحبسهم لأنه من طينة غير طينتهم، ومن واد غير واديهم، ولو كانوا أهلاً لفهم الشاعر لما احتاجوا إلى سؤاله[42].

وأجدني في موقف يقضي بتخير بعض المواقف النقدية في مناقشة ما انتهى إليه الناقد محمد محمد علي الذي يقول: "في شعر المرحوم التجاني يوسف بشير غموض محبب إلى نفوس الكثيرين من قرائه المعجبين به، فتراهم لا ينفكون يتكلفون له التأويل، والتفسير، يعلله بعضهم بعمق التصور، ودقة التخيل، وشطط العبقرية. ومما لا شك فيه أن التجاني شاعر متميز، تلمس الأصالة في معظم آثاره، وإن امتدت به الأيام حتى اكتملت تجاربه وبلغ فنه الذروة التي يطوع له ذكاؤه ودقة إحساسه، وشغفه بالاطلاع بلوغها، لجافى هذا الغموض المحبب، ولعرف التجاني، وعرف قراؤه أن للغموض أسباباً لا تمت إلى العبقرية بصلة"[43].

ويستشهد الناقد ببيت التجاني:

هو فني إذا اكتهلت وما زال في ريق الحداثة فني

يستشهد به في تقرير أن فنه ما زال في ريق الحداثة، ويرى أن فنه سيكون غير فنه إذا اكتهل[44].

وهكذا فإن الناقد يتخذ من عجز البيت منطلقاً لإصدار حكمه في تعليل الغموض بالحداثة، ولو تأمل أكثر لأدرك فضل الحداثة في ذيوع صيت الشاعر، وعلو كعبه، ولعلم أن التجاني لم يقل: "هو فني إذا اكتهلت، ليعترف بالتقصير بسبب الحداثة، كما فهم. . .، بل هو يعتز بفنه البارع الذي اكتمل، وهو لا يزال في ريق الحداثة"[45].

وليس أدل على اعتداد التجاني بشعره، واكتمال فنه من أبيات أوردها الناقد محمد محمد علي من قصيدة (الأدب الضائع)[46] التي يقول فيها:

عبقري من نفحة الخلد مأتاه ومن مهبط الهوى وبقاعه

في الينابيع ما يزال غريقاً سابحاً في هدوئه واندفاعه

يا أديباً مضيعاً من بني الدنيا بحسب الأديب محض انتجاعه

أنت يا رائد القريض وما أنت بسقط الورى ولا من رعاعه

أنت قيثارة الجديد بك استظهر من في الوجود سر متاعه

أدب ملؤه الحياة وشعر مفعم بالسمو في أوضاعه

فالأبيات أتت في معرض الحديث عن اعتداد التجاني بشاعريته، وإحساسه بضياع موهبته، في مجتمع لا يقدر إبداعه، ولا يرى في فنه جديداً مبتكراً، وهو موقف تتعدد إزاءه المواقف، وتختلف القراءات التي تنفذ إلى أغوار نفس التجاني، الشاعر المتطلع، في محاولة لتفسير ارتباطه، وولعه، وتعلقه الدائم بمصر مع إخفاقه في الوصول إليها، وتحقيق حلم عزيز طالما راوده كثيراً، وأبانت عنه قصائد متفرقات من بينها قصيدته:

(أمل) التي يقول فيها:

أمل ميت على النفس ألحد ت له من كلاءة الله قبرا

كنت أحيا على ندى منه يسا قط برداً على يدي وعطرا

ثم أودى يا ويحه ضاقت الدن يا به جهدها احتمالاً وصبرا

بعدما نضر الحياة بعيني مضى جاهداً وأعقب أسرا

أملي في الزمان مصر فحيا الل هـ مستودع الثقافة مصرا

نضر الله وجهها فهي ما تز داد إلا بعداً علي وعسرا(47)

وتدور ذات المعانى في قصيدة (إلى) التي يقول في بيتين منها:

ويا مهيض الجناح كم أمل تبغي وكم في السماء تطلب

تود (مصر) الزمان وهي لما يأمل منها الشباب مطلب(48)

ومثلما أشرنا فقد تعددت قراءات النقاد لموقف التجاني من مصر، واختلفت آراؤهم في ذلك تبعاً لاختلاف نظراتهم، على أن قراءة متأملة يطالعنا بها النور حمد في سفره القيم (مهارب المبدعين) تستحق الوقوف لسببين: الأول منهما أنها تناولت موضوعاً ألح على الشاعر كثيراً، وورد في قصائد مختلفات من شعره، والثاني أنها التمست تفسيراً منطقياً يرجع تعلق الشاعر المتعاظم بمصر إلى كون مصر ازدانت عنده بأحلام الخلاص التي نسجها في مخيلته حتى غدت عنده في مقام الحقيقة التي لا يرى لها بديلاً، الأمر الذي أغفلته معظم الدراسات حول تجربة التجاني، واكتفت بالتعليق العابر على نزوع التجاني الدائم لمصر، وتأثير ذلك على إبداعه، يقول النور حمد: " صنع التجاني في خياله من القاهرة مدينة بديلة، توسم أنها سوف تحتضنه، وتعوضه عن كل مفقود، وكل فائت، ولربما كان ذلك محض تخيل منه، وإني لأرى أن خياله وحده، وحاجته الملحة لمكان يقدر عبقريته، ويستوعب طاقاته الكبيرة، هي التي جعلته يتصور القاهرة مدينة فاضلة، حانية يمكن أن تعيد له اعتباره المفقود، ويمكن أن يجد فيها ما يغذي خياله الشاعر، ويستحلب طاقاته الوجدانية الكبيرة، فهو ربما خلط بين نشرها لقصائده. . . والاحتضان غير المشروط له، متوسماً أنه لا فرق لدى القاهرة بين عبقريته التي احتفت بها فعلاً، وبين سودانيته، وسمرته، ونشأته الفقيرة، وقدومه إليها من تخوم الغابة الإفريقية. وما من شك أن التجاني لو وجد فرصة السفر إلى القاهرة، وعاش فيها لربما وجد فيها من التهميش ما هو أشد، وأنكى مما كان يعاني منه في الخرطوم"[49]. وهو حديث يفتح الباب على مصراعيه على حقائق تعطي مصر فضل إظهار رموز شعرية سودانية، مثلما يرينا وجهاً مغايراً من المعاناة كالتي أشار إليها صاحب كتاب مهارب المبدعين حينما تناول واقع الأديب السوداني معاوية محمد نور.[50]

وبالعودة إلى موضوع الغموض في شعر التجاني فإن الناقد محمد محمد علي له آراء مفادها أن الغموض في شعر الشاعر مرده إلى الحداثة، يفصل ذلك في النقاط التالية:

1- التجاني يكاد يكون مصاباً بما يسميه علماء النفس (النكوص)، فهو دائم الحنين إلى أيام الصبا[51]، يوافقه في ذلك الناقد فاروق الطيب الذي يقول: "وأحسبه أصاب ولو شاء لوجد هذه الحنين إلى الصبا مبثوثاً في (إشراقة)، والأمثلة عليه كثيرة. . . "[52].

2- التجاني يحس أشياء يعجزه التعبير عنها فيلجأ إلى الشرود والضرب في أودية الخيال الجامح حتى تنقطع الصلة بينه وبين القارئ، أو تصيب عبارته الركاكة فينبهم الأمر ويخفى ما يريد"[53]. يمثل لذلك بقصيدة (قلب الفيلسوف)[54]:

مغداك من حجر الآباد مغداه ودون دنياك في الأيام دنياه

ودون مغناك من أبهاء شامخة كوخ "النبي" وفي علواء مغناه

أطل من جبل الأحقاب محتملاً سفر الحياة على مكدود سيماه

عاري المناكب في أعطافه خلق من العطاف قضى إلا بقاياه

مشى على الجبل المرهوب جانبه يكاد يلمس مهوى الأرض مرقاه

يدنو ويقرب مندك الذرى أبداً حتى رمي بعظيم في حناياه

منبأ من سماء الفكر ممسكة على الرسالة يمناه ويسراه(55)

ويتساءل فماذا فهم القارئ؟ وما حجر الآباد، وهل الآباد أزمنة أو أمكنة؟ وإذا تجاوزنا هذى فإلى أي شيء يرجع الضمير في (مغداه)، أيرجع إلى القلب، ويراد بالضمير الأول الشاعر، وبالثاني الفيلسوف، ويكون نظم الكلام

هكذا: مغداي من حجر الآباد مغدى الفيلسوف، أم ماذا يريد الشاعر[56]؟ وهو ما يراه الناقد فاروق الطيب، ويقرره بالقول: "إن الشاعر لا يريد أكثر من هذا الذي فهم الناقد، فمغدى كل إنسان إلى الدنيا هو مغدى الفيلسوف، فأين الغموض في هذا التعبير؟ "[57]، ويواصل فاروق الطيب القول: "أما حجر الآباد فهي خيال شعري، تصور الشاعر أن الأرواح قبل حلولها بالأجساد لها حجر كأنها الأبراج تكون الأرواح مستقرة بها حتى تستدعي إلى الأجساد تباعاً"[58].

3- الحداثة الفنية حملت الشاعر على ركوب الصعب، والكتابة في شؤون جديدة تميزه عن شعراء المدرسة القديمة، وإن لم يكن لهذه الموضوعات الجديدة صدى في نفسه، ولهذا جاءت قصائده متكلفة مثل قصيدته (في محراب النيل)[59].

وهو حكم قسا فيه الناقد على الشاعر كثيراً، وابتعد أكثر حينما قرر أن القصيدة لم تكن (صدى لتجربة نفسية صادقة مكتملة)، فالنيل الذي يحمل الخير والنماء، ويغادرنا على أسوأ ما نكون ظمأ وجوعاً يصبح في قصيدة التجاني أسطورة من الأساطير، فيتحدث عن تحدره من الجنة، واحتضان الملائكة له في دار الخلود، ثم هو قديم قد مخرته القرون المشمرة عن ساقها، البعيد الخطى، القوي السنابك، ثم يصفه بالجلال، فقد سجد العظماء قديماً على ضفافه، ويصفه بأنه مصدر العجائب والغرائب، إلى آخر هذه الصفات العامة التي لا تكلف الشاعر مجهوداً يذكر[60]. فالناقد هنا ينكر على الشاعر الصورة التي رسمها للنيل بقوله:

أنت يا نيل يا سليل الفراديس نبيل موفق في مسابك

ملء أوفاضك الجلال فمرحى بالجلال المفيض من أنسابك

حضنتك الأملاك في جنة الخـ لد ورفت على وضيئ عبابك

وأمدت عليك أجنحة خضرا ء وأضفت ثيابها في رحابك

فتحدرت في الزمان وأفرغت على الشرق جنة من رضابك(61)

ثم يقرر أنه ليس "ممن ينكرون استغلال الأسطورة في الأدب"[62].

وقد اكتفى الناقد فاروق الطيب بالقول: "وقد درج الشعراء في وادي النيل، وهم يتحدثون عن نيلهم على المنحى الأسطوري، فأحمد شوقي يقول:

من أي عهد في القرى تتدفق وبأي كف في المدائن تغدق

وإذاً فمأخذ الناقد هنا لا يعول عليه"[63].

وكنت أنتظر من أستاذنا الناقد فاروق – رحمه الله – أن يذهب في رده لأبعد مما انتهى إليه، فتأثر التجاني بشوقي لا يمثل دفاعاً منطقياً يبرر مآخذ الناقد محمد محمد علي، وقصيدة (في محراب النيل) لا تتخذ مصوغات جودتها من استحسان نظيراتها اللاتي تناولن النيل في زاوية الأسطورة، وأجرينه على قداسة التاريخ، فالتجاني شاعر له مزاجه الخاص، وتجربته المتفردة، وأسلوبه المميز الذي يصوغ له الخروج من إطار التجربة العاطفية في تصوير النيل، إلى رحاب الحس الفني الملهم الذي يستعين بالرمز والأسطورة. ولم يبتعد رأي هذا كثيراً عن رأي الأستاذ عبد المنعم عجب الفيا الذي أتفق معه فيما ذهب إليه بالقول: "وفي قصيدة (في محراب النيل)يتبين لنا أكثر أن القضية ليست قضية غموض كما حاول محمد محمد علي أن يصورها، ولكن قضية تباين في الرؤى، والاتجاهات الشعرية، والنقدية، وفي هذه القصيدة ينكر محمد محمد علي، على التجاني توظيف القداسة الأسطورية في تصوير النيل، ويتمنى عليه لو أن تصويره للنيل جاء واقعياً من خلال تأثيره اليومي المباشر على ساكنيه".[64]

الخاتمة:

وبعد، فإن تكن ثمة كلمة أخيرة، فإن الدراسة قد توصلت إلى أن:

1- كتاب (محاولات في النقد) يعد من أوائل كتب النقد الأدبي في السودان.

2- كتاب (محاولات في النقد) حمل دعوة الناقد محمد محمد علي إلى ضرورة تبني اتجاه سوداني (قومي) يميز الأدب السوداني عن بقية آداب البلدان العربية الأخرى.

3- محمد محمد علي يعد ناقداً واسع الاطلاع، عميق الثقافة، ينهل من معين عربي أصيل، لا تلمس أثراً لثقافة أجنبية في نقده.

4- الناقد محمد محمد علي مطبوع على البوح، تمزج شخصيته بين الاعتداد بالنفس، وبين التواضع.

5- مواقف الناقد محمد محمد علي اختلفت بين النقد المباشر، وبين نقد النقد.

6- كتاب (محاولات في النقد) يقدم حقيقة أن النقد جهد إنساني من شأنه أن يتأرجح بين القوة، والضعف.

في الختام، أستعير عبارة الأستاذ الناقد محمد محمد علي: "أحب أن أقول إن هذه الملاحظات لم تقلل من إعجابي بالكتاب، وافتتاني به، بل هي تحية مني لكتاب أعجبت به، وأصبت منه خيراً كثيراً"(65)

الهوامش:

(1) حيدر إبراهيم علي: التجديد والمغايرة عند محمد محمد علي (في الذكرى الأربعين) بتاريخ 2010/10/19م, الموقع على الإنترنت **www.sudanile.com**

(2) عبد المنعم عجب الفيا: في الأدب السوداني الحديث, دمشق, دار نينوى, طبعة أولى 2011م, ص114, 115.

(3) محمد محمد علي: محاولات في النقد (المقدمة)، الخرطوم، دار البلد للطباعة والنشر، طبعة ثالثة، 1998م، ص1.

(4) فاطمة قاسم شداد: محمد محمد علي شاعراً، دراسة تحليلية نقدية، الخرطوم شركة مطابع السودان للعملة، طبعة أولى 2009م، ص76.

(5) فاروق الطيب البشير: محمد محمد علي ناقداً، رسالة دكتوراه، أم درمان، جامعة أم درمان الإسلامية، المكتبة المركزية، 1999م , ص58.

(6)محمد محمد علي: محاولات في النقد, ص51.

(7) محمد محمد علي: محاولات في النقد, ص21.
(8) محمد محمد علي: محاولات في النقد، 14، 15.
(9) انظر عبد المنعم عجب الفيا: في الأدب السوداني الحديث, ص113-153.
(10) محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص7، 8.
(11) السابق: ص 8,7.
(12) أوردها الناقد محمد محمد علي في خمس نقاط، اكتفينا بالتعليق على النقطتين: الأولى، والرابعة. للوقوف عليها – مجتمعة – انظر محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص8-11.
(13) محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص9.
(14) انظر عبد الحليم حفني: الشعراء المخضرمون، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (بدون طبعة)، 1983م، ص241، 242.
(15) انظر محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص10.
(16) فاروق الطيب: محمد محمد علي ناقداً، ص62.
(17) محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص12.
(18) السابق: ص12.
(19) نفسه , ص12.
(20) فاروق الطيب: محمد محمد علي ناقداً، ص69.
(21) محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص14.
(22) محمد محمد علي: محاولات في النقد, ص 23.
(23) انظر السابق: ص12_15.
(4) السابق: ص 22.
(24) مجذوب عيدروس: عرض موجز لآراء محمد محمد علي، ص36.
(25) محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص23، 22.
(26) محمد محمد على: محاولات في النقد، 30.
(27) محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص23.
(28) السابق: ص23.
(29) السابق: ص23.
(30) محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص43.
(31) السابق: ص44.
(32) ميقتضي السياق أن يقول الشاعر يلعبن.
(33) محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص46.
(34) السابق: ص43-44.
(35) محمد محمد علي: محاولات في النقد, ص53.
(36) انظر عبد المنعم عجب الفيا: في الأدب السوداني الحديث, دمشق, دار نينوى, طبعة أولى2011م, ص 113. ود. حمد النيل محمد الحسن: التجديد في أدب محمد محمد علي(ندوة الذكرى الأربعين لوفاة الشاعر محمد محمد علي) الخرطوم, جامعة الخرطوم, مارس2011م, ص9-11.
(37) عبد المنعم عجب الفيا: في الأدب السوداني الحديث, ص113.

(38) انظر محمد محمد علي: محاولات في النقد(مقالات بعنوان:الأدب السوداني, وتاريخه) ص51-63, ود.حمد النيل محمد الحسن: التجديد في أدب محمد محمد علي, ص11،10.
(39) محمد الحسن علي فضل: حياة التجاني من شعره, دمشق, مؤسسة الصالحاني للطباعة, طبعة أولى 2003م, ص23.
(40) انظر عبد المنعم عجب الفيا: في الأدب السوداني الحديث, ص132.
(41) مجذوب عيدروس: عرض موجز لآراء محمد محمد علي النقدية(ندوة الذكرى الأربعين لوفاة الشاعر محمد محمد علي) الخرطوم, جامعة الخرطوم, مارس2011م, ص38.
(42) محمد محمد علي: محاولات في النقد, ص85.
(43) محمد محمد علي:محاولات في النقد, ص71.
(44) السابق: ص71.
(45) فاروق الطيب: محمد محمد علي ناقداً، ص75.
(46) محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص81-82.
(47) محمد محمد علي: محاولات في النقد, ص54.
(48) التجاني يوسف بشير: إشراقة، ص53.
(49) النور حمد: مهارب المبدعين _ قراءة في السير والنصوص السودانية، الخرطوم، دار مدارك للنشر، طبعة أولى 2010م، ص131.
(50) انظر السابق: 132، 131.
(51) فاروق الطيب: محمد محمد علي ناقداً، ص77.
(52) السابق: ص77.
(53) محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص72.
(54) السابق: ص72.
(55)التجاني يوسف بشير: إشراقة، الخرطوم، دار البلد للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة سادسة 1972م، ص 16.
(56) محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص73.
(57) فاروق الطيب: محمد محمد علي ناقداً، ص78.
(58) السابق: ص78.
(59) محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص74.
(60)السابق: ص74-75.
(61) التجاني يوسف بشير: إشراقة، ص 143.
(62) السابق: ص75.
(63) فاروق الطيب: محمد محمد علي ناقداً، ص79.
(64) عبد المنعم عجب الفيا: في الأدب السوداني الحديث، ص140.
(65) محمد محمد علي: محاولات في النقد، ص11.